المناصيّة والتّأويل

دراسة سيمائيّة لمناصّ رواية "فوضى الحواس"

مبروك كواري

المركز الجامعي بشار

إن الأدب عندما يقول شيئاً، فإنه يقول لنا شيئا
آخر معه (ميكائيل ريفاتير)

يتعامل القارئ مع النصوص الروائية وفق تقنية الإثارة المقصودة المصحوبة بالإعجاب والاستغراب، فينجر عن هذه الوضعية الإقبال على النص أو النفور منه والتي تنطلق تفاعلاتها من اللقاء البصري الأول بين "القارئ والرواية"، فتنشأ علاقة حوارية تبدأ من المناص[1] الذي يعتبره السيميائيون عتبة النص أو الواجهة الخارجية التي تجسد أبعاد النص الروائي البنائية والدلالية والجمالية لأنه البوابة التي يبدأ منها تفاعل الحدث القرائي، فهو المرجع الذي منه نصل إلى مشكلات النص الفنية والجمالية. وهو العلامة الأولى التي تشد القارئ إلى الوقوف على النص أو الزهد فيه ...

وفي التحليل التناصي لبنية مناص رواية "فوضى الحواس" لأحلام مستغانمي التركيبية والدلالية والجمالية سنخصص هذه الدراسة لمكونات النص الخارجية الشكلية أي كل ما ينضوي تحت مصطلح "المناص" ...

المناص واجهة النص الشاهر لمضمونه ونوع قراءته، يغري القارئ ويقنعه، فهو محطة إعلامية، ووسيلة قوية للتواصل يسهّل عملية جلب القارئ لقراءة النص وفهمه وتذوقه والتأثير فيه وتوجيهه وجهة معينة[2].

والمظهر الخارجي للكتاب يلعب دوراً أساسياً في رواجه بين القراء، فهو مفتاح النص وحلقة الوصل الأولى بين النص والقارئ. والمناص يتشكل من مجموعة عناصر متجانسة متكاملة موجهة[3] من المبدع ومخرج النص. دار النشر. نحو الهدف (القارئ). وكل عنصر من المناص ليس مجرد وسيلة نقل لمعلومات بريئة، بل هدفه الرئيس هو التواصل والإقناع والإغراء، والتأثير في المتلقي أياً كان مركزه الاجتماعي والثقافي[4] محاولاً تغيير وخلخلة البنية العقدية لديه.

يشكل الناشر والمبدع حلقة جامعة هدفها جلب انتباه القارئ والاستحواذ على تفكيره ومشاعره وتوجيهه وجهة خاصة من لحظة بداية العقد القرائي، أي من الاتصال الأول الذي يبدأ من المناص كما قال جون كوهين : "لا أحد يكتب بعفوية فالكتابة تتضمن حداً أدنى من الجهد والإعداد"[5].

فأيّ كتابة هي مشحونة بمقصديه خاصة قد يصل القارئ إلى مضانها، ويقف على مراميها بالتحليل والتفسير والتأويل، وبالنبش في ثنايا المكتوب، في ما يقوله النص في غفلة من الكلمات ونواياها الصريحة[6] وقد يظل في مسعاه، وتسوقه ظلال انفعالية توقفه على تأويلات وتفسيرات للمكتوب ما كانت تخطر على بال المؤلف ...

والمناص يتكون من مجموعة علامات لسانية، وغير لسانية تحيط بالنص. تعرض دوالاً متعددة المعاني ... و يتركب المناص من :

العلامات اللسانية : وتشمل كل العلامات اللغوية المكتوبة فهي تشخص المضمون وتقدّم معنى عن النص وهي : العنوان، العناوين الفرعية، عناوين الفصول، الملاحظات، الإهداء، التقديم، المدخل، الاستشهاد، كلمة الناشر، التعليق، والتفسيرات، والتحذير، والحواشي[7]...

العلامات غير اللسانية : ذات تجليات أيقونية: وتشمل كل العلامات اللغوية المجسدة للدلالة والقصد دون استعمال الحروف المتعارف عليها في اللغة، ونعني بها كل الرموز التي تحيط بالنص مثل الصورة الفوتوغرافية، الرسوم الكاريكاتورية، اللوحات، والألوان .... وتعرض على المتلقي تصورها بوصفها وحدة شاملة متجانسة تنتج الصدمة لديه[8] باعتمادها على الألوان ...

يقول عالم النفس أردت شام "إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور. فاللون يؤثر في إقدامنا وإحجامنا، في الشعور بالحرارة أو البرودة، وبالسرور أو الكآبة، بل يؤثر في الشخص و في نظرته إلى الحياة ..." وفي تحليلنا التناصي لبنية مناص رواية "فوضى الحواس" سندرس العناصر التالية : العنوان، الصورة، كلمة الناشر، الإهداء ...

العنوان

العنوان من منظور السيميائيين هو سؤال إشكالي ينتظر حلاً، والنص هو بمثابة إجابة عن هذا السؤال الإشكالي، وذلك بإحالته على مرجعية النص المركبة من دلائل تعلن عن طبيعة النص ونوع القراءة التي تناسبه. والعنوان كما يقول جان بيار ريني كارت Jean Pierre Renecart عنصر غواية وإغراء للقارئ، ومقدمة المغامرة الإبداعية، مغامرة أولى مع النص ومع محتواه. فهو واجهة دورها جذب ولفت انتباه المتلقي. وتكمن وظيفته الأولى في إثارة القارئ. فهو دافع وفاتح لشهية قراءة النص apéritif حسب رولان بارث Barthe وهو لوحة وخطاب إشهاري، وسلطة توجه القارئ، تختله وتشده إلى النص وتحفز عملية الاستقبال لديه، وتشحن فعله التأويلي بإمكانات متعددة، وتشده إلى قراءة النص المكتوب عبر تقنية الإغراء والإدهاش والتشويش بالاستحواذ على تفكيره ومشاعره بالتحريض أو المواجهة[9] ...

والعنوان بنية مستقلة ذات بعد تواصلي تداولي بين عناصر الصيرورة الإبداعية التي تتشكل من المبدع والنص، والناشر والنص، والقارئ والنص، وتحيل إلى مرجعية ما، سياسية مذهبية،فنية، يتجاذبها أقطاب الفعل الروائي المبدع والنص والناشر والقارئ عبر تقنية الغواية، والإغراء والإدهاش للتأثير في القارئ الذي يقدم له معرفة كبرى لفهم النص وضبط انسجامه، وفهم ما غمض منه[10] وهو وسيلة إجرائية في التعامل مع النص في بعديه الدلالي والرمزي.

تتميز عناوين الروائية أحلام مستغانمي بالقصر، فكل الروايات التي كتبتها إلى اليوم تتركب من ملفوظين لسانيين، هذه الخاصية تستلزم قرائن فوق لسانية، توحي وتحدد دلالة النص. فالصورة والألوان التي طبعت على الغلاف كثفت دلالة العنوان، وجسدت أبعاده الدلالية والرمزية والجمالية.[11]

وتقاطع الأيقوني مع اللساني يشكلان نسقاً سيميائياً. فالصورة نسق سيميائي غير دال بنفسه يشتغل وفق علاقة خاصة بين مجموعة من العناصر التي تحدد لها خصوصيتها وتمايزها.

والعلامة اللسانية تتميز بالطابع الاعتباطي في علاقة الدال بالمدلول، والعلامة الأيقونية عكسها تتميز بخاصية تعليلية تكون العلاقة بين الدال والمدلول علاقة مشابهة ومطابقة. فهي تقدم نفسها في شكل كلي تفرض على القارئ تصورها بوصفها وحدة شاملة متجانسة تنتج الصدمة le choc لديه في تأويله للعلامة الأيقونية، وهذا ما يستلزم إقحام ملفوظات لسانية إلى جانب الخطاب البصري لإحداث شرخ في التواصل وتوجيه الدلالة، وحصر مجالها في المقصد الذي يتوخاه الناص والناشر. وهذا ما تجسد في مناص رواية "فوضى الحواس" للكاتبة أحلام مستغانمي.

إن التركيب اللغوي القصير الذي وسم أعمالها خاصية أسلوبية، أضفت على نصوصها نوعاً من الغموض، والإبهام الذي سرعان ما يزول بعد القراءة ... فعنوان رواية "فوضى الحواس" تركيب مسبوك من كلمتين، هما كالشيء

الواحد، مضاف ومضاف إليه، أصبحت به كلمة (فوضى) معرّفة بالإضافة، وهي خبر لمبتدإ محذوف في أولى أبجديات النحو العربي، كأي عنوان يتصدر أي شيء. ومن هذا المعنى النحوي الذي يفضي إلى تركيب إسنادي مجازي بالمعنى البلاغي، يتم من خلاله تسريب حالة الفوضى، التي تحاول مبدعة النص تشخيصها وبهذا نلج النص،نبحث عن معناه وحالته، طالما أننا نرقب من أعلى مناص فيه، ومن أوسع أبوابه وأرحبها، نتعامل معه بكل ما أوتينا من قدرة على عقل المعاني، وعندما نستدعي المبتدأ الغائب الحاضر تتحوّل العتبة الأولى (المناص) إلى خلق جديد (المناصة).

وعندما يلتقطه القارئ للمرة الأولى ينزاح وهمه إلى أنه أمام كتاب علمي، يتناول الحواس البشرية ويبين ما يعتريها من اضطرابات في وظائفها البيولوجية أثناء تعاملها مع الواقع والوقائع، بين الإدراك وردود الفعل الداخلية والخارجية. لكن سرعان ما يزول هذا الوهم بعد أن يتجه بصره إلى ملفوظ "رواية" المكتوب مباشرة تحت العنوان الذي يحصر دلالته، ويوجهه وجهة أدبية، فيدرك القارئ أنه أمام عمل أدبي. وهذه أول مناوشة بين القارئ والرواية حيث تنقله من مجال معرفي إلى آخر يخالفه في جميع المعايير العلمية والفنية وأول صدمة يتلقاها.

فملفوظ "رواية" ضيق مجال هذا الملفوظ وحصره في جنس أدبي هو "الرواية" هذا الحصر يفتح باب التأويل على مصراعيه، وتبدأ عملية طرح السؤال : فما المقصود بهذا الملفوظ ؟ وما هي مقصدية صاحبة النص ؟ وهل للحواس مقاييس تقاس بها درجة تفاعلها وتعاملها مع الواقع والوقائع حتى يحكم عليها ؟ وهل هذا الحكم خاص بردود الأفعال ؟ ...

من هذه الزاوية يتنقل هذا الدال من كونه دال تعيين إلى دال تضمين، فتنزاح دلالته، وتتداخل وتتشابك التأويلات لدى المتلقي لتحليل شفرات هذا الملفوظ، وهذا نتاج التشويش في الفهم، لأن العنوان كما يقول أمبرتو إيكو عليه "أن يشوش الأفكار لا أن يحصرها"[12] فالعنوان جملة اسمية وكما هو

معلوم فإن الاسم يدل على الثبات، ولكن هذا ما لا نلاحظه، فهو يوحي بالحركة اللامنتظمة التي شملت كل مشكلات النص الروائي من البداية إلى النهاية حركة واضطراب عنيف مدمر. فالفوضى التي وسمَ بها هذا النص الروائي طغت على مفاصل الرواية، وغطت الديناميكية الروائية في كل تضاريسها التي عرضتها الرواية في جميع المجالات السياسية والإعلامية والاجتماعية والثقافية. فهي شهادة على فترة عاشتها البلاد، فترة الفوضى والدمار الذي طال كل مقومات هذا الوطن ... ومن هذا العنوان اللافت نجد الكاتبة تضع القارئ في مواجهة مع النص وأحداثه فالحواس هي وسيلة الإنسان الأساسية للتعرف على العالم الخارجي وهي بوابة المعرفة التي تمكنه من إدراك الواقع والتعامل معه، وإذا ما شابها اضطراب في وظيفتها فإن النتائج ستكون حتماً مدمرة للإنسان في استعماله للعلامة وتأويلها.

وتعلن الكاتبة من البداية أن أساس الفعل الروائي الفوضى والاضطراب الناتج عن إدراك الحواس المضطربة المشوشة، فكل أحداث النص المجسدة للواقع الذي تعيد صياغته هي وليدة هذا الوضع. فالخطأ في الإدراك يستلزم الخطأ في تقدير الفعل والنتيجة التي تتبعه، وهذا ما جسدته أحداث الرواية عبر شخوصها : البطلة أخطأت في تقدير شريك الحياة بالاعتماد على حاسة البصر فاختارت اللون الأسود بدل الأبيض إذ تقول :

"الآن أعي أنني يومها أخلفت، بفرق كلمة ولون، قطار الحب الذي كنت سآخذه فلحقت في لحظة من فوضى الحواس بذلك اللون الأسود، وأخطأت وجهتي".[13]

مارست الحب المحرم كما اشتهت لا كما كانت تريد أدركت الخطأ بعد فوات الأوان. فالحواس دفعتها إلى الجهة التي ترفض إتمام الفعل "الزواج، الحياة العادية"

"الحب ليس سوى حالة ارتياب فكيف لك أن تكون على يقين من إحساس مبني أصلا على فوضى الحواس، وعلى حالة متبادلة من سوء الفهم "[14].

هذه المعرفة الأولية التي يفرزها العنوان في ذهن القارئ من خلال التأويل السيميائي تؤكد سيادة اللامنطق واللانسجام والفوضى والاضطراب المهيمن على أحداث الرواية والموجه لشخوصها. هذا المسار الدرامي يزيده وضوحاً مناص كلمة الناشر والإهداء والصورة .

صورة الغلاف

تفنن مبدع الصورة في مزج الألوان لاعتقاده الراسخ في تأثيرها في ملتقط الصورة لأن دلالتها مطابقة لشكلها والشكل يظهر تمازج الألوان الأزرق والأبيض والأسود والرمادي وكلها ألوان توحي بالغموض والالتباس في تأويلها ، ومن هنا ينزاح فعل التأويل ...

يلاحظ المتلقي صورة باهتة لامرأة بدون ملامح وجه، متوثبة للحركة مكسوة بأوراق نبات ينطلق من حزامها نحو الأعلى والأسفل، في تناسق فوضوي لا ضابط له وهذه إشارة إلى الغموض الذي يهيمن على المتلقي وهو يتفحص هذه الصورة الباهتة الملامح والتي يغلب عليها اللون الأزرق الغامق والفاتح الذي يدل على الحكمة، وعمق التفكير والفضاء الواسع اللانهائي كما الغموض والاضطراب والمغامرة ...

فالقارئ عند رؤيته للصورة تتداعى في مخيلته جملة من التساؤلات تصب كلها في خانة الغموض والإبهام والفوضى في حصر دلالة العلامة المفعمة بالمعاني ...

كلمة الناشر

من المعرفة الأولية التي تشكلت عند المتلقي من تأويلاته لدلالات العنوان وصورة الغلاف تتطبع في ذهنه فكرة أن نظام هذا النص مبني على عنصر الفوضى والاضطراب في جميع مناحي الوقائع والأحداث التي سيعرضها.

وهذا الزعم تجسده كلمة الناشر التي تعري النص، وتحصر مضمونه في خانة الفوضى الجنسية. لقد اختار الناشر هذا النص من الرواية بعناية فائقة

وقصديه ساخرة من المتلقي وكأني به يوجه هذا النص لشريحة معينة من المجتمع تبحث عن كل ما يثير الغرائز والأهواء.

1- هو قال " أجمل حب هو الذي نعثر عليه أثناء بحثنا عن شيء آخر"[15]

2- "هو رجل الوقت ليلاً يأتي في ساعة متأخرة من الذكرى. يباغتها بين نسيان وآخر يضرم الرغبة في ليلها ... ويرحل.

تمتطي إليه جنونها، وتدري : للرغبة صهيل داخلي لا يعترضه منطق فتشهق وخيول الشوق الوحشية تأخذها إليه.

هو رجل الوقت سهواً. حبه حالة ضوئية في عتمة الحواس يأتي يُدخل الكهرباء إلى دهاليز نفسها. يوقظ رغباتها المستترة. يشعل كل شيء في داخلها ... ويمضي فتجلس في المقعد المواجه لغيابه، هناك .. حيث جلس يوماً مقابلاً لدهشتها. تستعيد به انبهارها الأول".[16]

فالملاحظة الأولى التي تفرض نفسها أن الناشر يقصد إلى ترويج العمل لاعتقاده أن ما قام به سيدفع القارئ إلى اقتناء هذا النص. فمضمون النص هذا يحيل القارئ إلى مرجعية معرفية خاصة توحي بأن هذا النص مغامرة جنسية تثير الرغبة، وتهز الكامن من النفس. وهذا ما أراده الناشر من هذا الاقتباس. فهو بهذا الفعل يغري القارئ ويدفعه إلى قراءة هذه المغامرة الجنسية. لكن سرعان ما يخيب أفق انتظاره بقراءته المناص الأخير الذي له ارتباط وثيق بكلمة الناشر.

مناص الإهداء

الإهداء خطاب موجه للقارئ، يظهر العلاقة بين المبدع والمتلقي، فهو بوابة يلج منها إلى عالم النص، هو ملفوظ حميمي، مغرق في الذاتية، يجمع بين المجاملة والاعتراف ولكننا نجد أن هذه الحميمية منفتحة على لحظة الكتابة التي تصبح سحراً واستثماراً لذوق ما، ذوق قلق، كألم عذب يعبر عن عزلة الذات ونفيها في واقع مليء بالفواجع، بالدمار، بالمرارة ... وبذلك

تصبح هذه الحميمية شرعة بين من ينتجها ومن يتلقاها في عالم مغلق بلا نوافذ تتحول فيه الذات إلى عالم يموت فيه الإنسان دون سابق إنذار "الآن بامكانك أن تموت لا بسبب جريمة ارتكبتها وإنما لأن هناك افتراضاً أن تكون مجرماً حسب المكان والزمن"[17] ...

ولذلك فهي تفتتح خطاب الإهداء بنوع من الحميمية تجعل منه درعاً وحصناً، وتغلقه بنفس الحميمية التي ترد معانقةً براءة الطفولة، وبسمتها التي حين تشرق ينجلي الظلام، ويهوي كل عناد وتسقط الحدود، والأوثان والطابوهات ... ويتعرى الواقع حين يصبح الانسان بلا حرية خائفاً، يبحث عن حق الحياة في وطن "يمتلك وحده متى شاء حق تجريدك من أي شيء، بما في ذلك أحلامك".[18]

لنقف معاً ونحلل مناص الإهداء :

"إلى محمد بوضياف ... رئيساً وشهيداً.

وإلى سليمان اعميرات، الذي مات بسكتة قلبية وهو يقرأ الفاتحة على روحه. فأهدوا إليه قبراً جواره.

وإلى ذلك الذي لم يقاوم شهوة الانضمام إليها، فذهب ذات أول نوفمبر، بتلك الدقة المذهلة في اختيار موته، لينام على مقربة من خيبتها.

من وقتها ... ورجال أول نوفمبر قهراً يرحلون .

من وقتها وأنا إلى أحدهم أواصل الكتابة.

إلى أبي ... مرة أخرى".

بعد قراءة النص "الإهداء" تتقلب المفاهيم والمدلولات التي تشكلت من المعرفة الأولى التي أفرزها العنوان والصورة وكلمة الناشر لدى القارئ. فها هو يواجه الحقائق المرعبة والغموض اللامتناهي في تفسير الأحداث ...

تبكي الروائية مصير الجزائر وتهدي عملها هذا إلى شخصيات لها حضورها المؤثر في تاريخ الجزائر وحاضره هو لغز الثورة ولغز المؤامرة التي راح ضحيتها، بوضياف التاريخ، الثورة، بوضياف النفي والتشريد، بوضياف العزة والكرامة، بوضياف الموت غدراً على المنصة أمام العالم ؟... فهذا المناص يرحل بالقارئ إلى متاهات الواقع المرعب المدمر ...

فالكاتبة تصرخ أمام العالم من هذه النافذة لتكشف وتدين الواقع بكل تناقضاته، ومنه يقف القارئ على عتبة جديدة يلج منها عالم النص المليء بالمتناقضات نص ملغم يجسد واقع الجزائر بكل مرارة وصدق وما يجري فيها من تدمير ذاتي للحاضر والماضي ... وهذه قمة المفاجأة لشد القارئ وإغرائه إلى تتبع أحداث النص ...

الإحالات

1 . مصطلح para texte عرب بعدة مرادفات منها: المناص والمناصة والنص الموازي،وملحق النص، المناصصة، شبه النص، النص الحاف، خارجيات النص، المناصية ... ويعني كل العناصر الخارجية التي يتشكل منها النص والتي هي بمثابة البوابة الأولى التي يطالعها القارئ. وهي Poste face تعليق، préface تقديم، titre عنوان، sous titre عنوان فرعي، notes ملاحظة، Dédicace إهداء epigraphe استشهاد avertissement تنبيه تحذير ...

2 ,3,4- Lane Philippe, la périphérie du texte, paris, NATHAN, 1992, P7.

5-جون كوهين، بنية اللغة الشعرية، ص 23.

6- أمبيرتو إيكو، اسم الوردة

7- محمد خير البقاعي، دراسات في النص التناصية، ص ،111، 2004.

8- بسام قطوف، سيمياء العنوان ، ص 61، عمان، 2001.

9- الطاهر روابنية، النص الأدبي وشعرية المناصصة، مجلة اللغة والأدب، ص 365، العدد 1997/12.

10- محمد مفتاح، دينامية النص، ص 161، 1987 ، الدار البيضاء.

11- عبد الرحمن طنكول،خطاب الكتابة وكتابة الخطاب، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد9، 1987، ص 135.

12- محاضرات الملتقى الوطني الثاني، السيمياء والنص، قراءة في كتاب سيمياء العنوان، ص 23.

13- الرواية، ص 347. 15- الرواية، ص 307. 17- الرواية، ص 208.

14- الرواية، ص 348. 16- الرواية، ص 10. 18- م س، ص 102.